التوظيف السياسي لمكانة الحاكم في المسيحية والإسلام

أ.ناش رضوان
جامعة الجزائر بن يوسف بن خدة– الجزائر

تاريخ الارسال: 16-12-2020 تاريخ القبول:24-02-2020 تاريخ النشر: 31-03-2020

ملخص:

هناك تنافس حقيقي بين شعوب الحوض المتوسط بخصوص بناء الدول العصرية وتكاد تنقسم هذه الشعوب إلى طائفتين رئيسيتين هي طائفة الشعوب المسيحية التي تستوطن شمال الحوض المتوسط وطائفة الشعوب الإسلامية التي تستوطن جنوب وشرق الحوض، وبحكم التفاعلات التاريخية نشأت عدة نظريات حول دور الدين في بناء الدولة القوية، مما خلق الكثير من الآراء المتناقضة والمتصارعة، فالبعض يرى أن استنساخ النموذج الغربي هو الأمثل وطائفة أخرى ترى أن الإسلام مكون رئيسي لقيام الدولة القوية المنشودة.

كلمات مفتاحية: الإسلام، المسيحية، الدولة، الدين، المجتمع.

Abstract:

There is a real competition between the Medeterranian basin regarding the building of modern states.These peoples is almost devided in two main communities
Chrstian peoples community which settle in the north oft he mediterranian sea and Islamic peoples community which settle in the south and the east o fit.according tot he historical interactions several the oeis about the role of religion in building a pourful state what created many contradictory and conflicting views
Some see that clowing the western example in most convinent others see that Islamic ist he main component in the estabilishement oft he powrful desired state

Keywords : Islam Christianity state religion society.

P-ISSN : 2571-9807 / E-ISSN : 2710-8244

مقدمة:

جاءت الديانات السماوية لتصحيح أخطاء البشر على الأرض، خاصة الحروب التي أشعلوها فيما بينهم لأجل الهيمنة والاستيلاء والاستحواذ على أكبر قدر ممكن من الأموال والملذات، وكانت الحروب بين الامبراطوريات الكبرى ذات دمار شامل لكل مظاهر الحياة في الأماكن التي مرت بها تلك الجيوش أو اقتتلت فيها، ولما انتشرت المسيحية في الإمبراطورية الرومانية تم استغلال تلك تعاليم التسامح والتآخي التي جاء بها روح الله عليه السلام من طرف أباطرة الدولة في شحن نفوس المواطنين ضد غيرهم من الدول والممالك المجاورة، وتحولت نصوص المحبة إلى رايات حروب باسم المسيحية ونشرها في كل العالم وقتل كل من يخالفها بسبب التآمر المبيت بين رجال السياسة في القصور ورجال الدين في الكنائس، ثم تنزل المؤامرة لرجال الحرب في الثكنات وتتم التعبئة العامة للجمهور وتعود المآسي والمعاناة للأبرياء مع الجوع والحصار مرة ومع الحرق والإتلاف أخرى ومع الموت جوعا ومرضا أو سيفا. ولما جاء النبي محمد صلى الله عليه وسلم بالإسلام الذي يعني السلام مع الذات ومع الآخرين عرف الجميع أن هذا الدين سيحرم الجبابرة والظالمين من تحقيق نزواتهم وجرائمهم في حق الشعوب المظلومة فابتدأوه بالحرب وأشاعوا حوله أنه دين لا ينتشر إلا بالسيف وأن الإسلام والسيف مقرونان في قَرَن واحد و دارت عجلة التاريخ بنفس المسار الذي اختطته مع المسيحية من خلال توظيف آيات القرآن في تحريض المسلمين على القتال وتصوير غزوات النبي على كونها حروبا لإجبار الناس على الدخول في دين الله تحقيقا لتصورات الملوك في توسيع سلطانهم وامتداد نفوذهم.

ثم إن المتدبر في انتشار الديانات السماوية يرى أن الجيوش كانت في وادي والدين في وادي آخر، حيث أن الإقناع والفكر والحوار هو سبب انتشار الأديان، أما الحرب والقتل والدمار فهي وسائل انتشار البغضاء والعداوة والفناء.

إن الأسماء التي خلدها التاريخ البشري في نشر المسيحية مثل بولس الرسول أو آلاف الأسماء التي نشرت الإسلام لم يكن لها سيف تستعين به في مهمتها ولا جيش من المحاربين يسير بين يديها، بل كان ولا يزال الدعاة إلى الله معروفة مناهجهم ووسائلهم.

لقد كان لتسخير الديانات السماوية بالغ الأثر السيء على علاقة أهل الديانات بعضهم ببعض، كان ولاء رجال الدين وتحزبهم لرجال السياسة سببا فيما حاق بالبشرية من مآسي وحروب.

أولا: المسيحية ونظام الحكم.

انتشرت المسيحية بين الشعوب بدافع عاطفي مع مأساة روح الله عيسى بن مريم عليه السلام، وكان الانتشار وجدانيا أكثر منه عقليا، حيث كان تأثير تعاليم المسيح روحيا أكثر منه تنظيميا، وحتى عندما سأله الحاكم الروماني: هل أنت ملك اليهود؟ أجاب عليه السلام: أنت تقول (إنجيل لوقا،23–3).فالجواب فيه إيحاء على عدم منازعة الحاكم سلطته ولو كان جائرا؛يقول القديس كيرلس: قادوا يسوع إلى بيلاطس، وهم أيضًا أنفسهم سُلموا للجند الرومان الذين احتلوا أرضهم واقتحموا مدينتهم حيث الموضع المقدس المكرم، وسلم سكانها للسيف والنار (كيرلس الكبير ،ص 90).

1 –استغلال الحاكم نصوص المسيحية:

لقد تم استغلال نصوص الإنجيل الواردة على لسان عيسى عليه السلام من طرف الجميع، حيث استغلها الحكام عبر العصور واستغلها مدعو الحفاظ على الشريعة والتعاليم السماوية إلى اليوم.

أ–"أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله"(إنجيل مرقس،12–17): هذه العبارة التي صدرت عن المسيح عليه السلام اتخذها الجميع شعارا لمحاربة الأديان، وفصل الدين عن الدولة، بمن فيهم القسيسون والرهبان والعاكفون في الكنائس، لكن يبقى تحالف رجال الدين مع رجال السياسة قائما بشكل خفي بعدما كان في شكله العلني، وهذه نماذج عن تضارب مدلول النص لدى المسيحيين وكيفية تأويله ليتماشى مع التحالف العصري الذي صار ضرورة أكيدة في بناء الدولة الحديثة.

* من تعليم المسيح هذا نرى أن الواجبات للدولة مقدسة وضمن الواجب الديني... ليس السؤال: هل نخضع لقيصر أم لله، لأن الخضوع للاثنين واجب، والخضوع لقيصر فيما لا يخالف الخضوع لله هو من أصل الخضوع لله، لأن الله هو الذي سمح لقيصر أن يتسلَّط عليهم. فعليهم أن يخضعوا لهذا التأديب. وكما تذكِّرهم صورة القيصر على الدينار، بما عليهم له، يجب أن تذكّرهم صورة الله التي خُلق فيها الإنسان، بما عليهم لله (حلمي يعقوب،2007، ص 121).

* ما هي أوضاع أوربا عندما كانت الكنيسة هي الحاكمة، هل رجال الدين كانوا يؤمنون بمقولة عيسى على أنها العَلمانية (شامل عبد العزيز،2011، ص 2).

ب–التجديف(دائرة المعارف الكتابية المسيحية، قاموس الكتاب المقدس::وهي الذريعة التي يتخذها الأشخاص المدعون الحفاظ على ناموس الشرائع السماوية، وأغلبهم من المتدينين على طريقة العكوف على النصوص، وكانوا زمن المسيح عليه السلام يتمثلون في خدام الهيكل وكهنة المعابد، ثم التبست تلك الطريقة على المسيحيين أنفسهم عندما بنوا الأديرة واعتكفوا فيها على دراسة تعاليم المسيح والصلاة والعبادة، فوجد أيضا الحاكم ضالته في استغلالهم كما استغل الرومان الوثنيون أحبار يهود الهيكل والمعابد لتثبيت سلطانهم على الشعوب المتدينة، لذلك ترى تركيز علماء المسيحية على شخص المسيح ومنهجه الأخلاقي وانعدام حديثهم على برنامجه السياسي في قيادة المجتمع؛(القس أنطونيوس فكري، ب ط، ص 70).

2 –عدم نضج مفهوم الدولة في المسيحية:

عندما اكتسح الوجدان المسيحي قلوب الناس في أغلب حواضر العالم، لم يجد السياسيون بدا من اتباع تلك التعاليم وفق التوجيه الذي صنعوه لها، واختاروا لذلك أنسب التحليلات السياسية لمنهجهم في تسيير الأمور العامة، وحتى حماة الشريعة المتمثلين في أحبار اليهود في ذلك العصر لم يستطيعوا إقناع الناس بضرورة التقيد بتعاليم شريعة موسى في الحياة السياسية لأنها كانت غير ملائمة مع رغبة الانسان في التسلط والحكم.

أ–فاخضعوا لكل ترتيب بشري من أجل الرب، إن كان للملك فكمن هو فوق الكل، رسالة بطرس الرسول الأولى،13–2.

ب–ذكرهم أن يخضعوا للرياسات والسلاطين ويطيعوا ويكونوا مستعدين لكل عمل صالح، رسالة بولس الرسول إلى أهل تيطس،1–3.

لم توضح الرسائل ولا تفاسير الكتاب المقدس مقدار الخضوع للسلطة ولا نوعها، بل جاءت على نحو الإطلاق التام، دون الالتفات إلى مسائل الدين أو الهوية أو الصلاح، يقول الأنبا تادرس في جمعه أقوال من سبقوه من مفسرين: يقول القدّيس أمبروسيوس يلزم الخضوع له كما للرب، وعلامة الخضوع هو دفع الجزية، وأيضًا يقول يركّز الرسول على أن نرُد له ليس فقط المال، بل الكرامة والمهابة،إذن ليست هنا ثنائيّة بين عطاء قيصر حقّه وعطاء الله حقّه، فإن كليهما ينبعان عن قلبٍ واحدٍ يؤمن بالشهادة لله خلال الأمانة في التزامه نحو الآخرين ونحو الله(الأنبا تادرس،2001،ص 790).

ثانيا: الإسلام ونظام الحكم.

نشأ الإسلام في بيئة مختلفة تماما عن بيئة المسيح عليه السلام، حيث كان الناس محتاجين أشد الحاجة إلى توحيد صفوفهم و لم شملهم الذي مزقته الحروب والنزاعات الدامية حول مسألة الحكم، لذلك فإن النصوص التشريعية الإسلامية كثيرة في الكتاب والسنة بخصوص الحكم والدولة وتسيير مصالح المسلمين و وحدتهم والمقاصد المطلوبة في سعيهم لتلك الغاية، مما يفسر اختلاف المسلمين عن المسيحيين في نظرتهم للدولة، فالمسلمون كانت لهم دولة واحدة يحلمون بإعادة بعثها وجمع أوصالها المتقطعة، بينما لم يكن للمسيحيين تلك الدولة التليدة وليس لهم ذلك الحلم الجماعي.

1-الدولة في القرآن الكريم:

بلغت الآيات التي جاء ذكر الحكم فيها خمسين اَية، ناهيك عن سائر الآيات التي تتحدث عن الدولة والسلطان والنظام والشورى، ولعل هذا هو الامتداد الطبيعي للمشروع الإلهي حيث أن تغاضي المسيح عن إرساء الدولة لم يكن عن غفلة ولكن لعدم وجود قابلية لدى اليهود آنذاك، بينما كانت حاجة المسلمين ضرورية وآنيّة لبناء دولة إسلامية تحمي عقيدتهم وكيانهم وتضمن وحدتهم وتحقق أهدافهم وبعد ذلك كله جاء الأمر الإلهي بالطاعة لله ولرسوله ولِأوْلي الأمر حيث يقول عز وجل:(يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا)(سورة النساء، الآية 59)،هذه الآية الكريمة التي أسالت حبر المسلمين منذ نزولها إلى اليوم ولم يقفوا على تفسير جامع لها من حيث حد الطاعة ولا من عنى الله عز وجل طاعتهم وقرنها بطاعته وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم حيث وردت عدة اجتهادات متباينة.

أ-طاعة الأمراء: وهي الطاعة التي اتفق جميع المفسرين على وجوبها، ثم اختلفوا بعد ذلك هل هي طاعة الأمراء الذين نصبهم رسول الله صلى الله عليه على المسلمين كأمراء على الجيوش والسرايا ونحوها أم هم جميع الأمراء خاصة وأن هناك شواهد تقضي بعدم إطاعة المخلوق في معصية الخالق، وأن في الأمراء عسفا وجورا فتح باب مدى الطاعة ومقدارها للأمراء، ويمكن القول إن كل الاجتهادات أصلها في تفسير الطبري (الطبري،2000م، ص 495).

ب-طاعة السلاطين: يقصد بهم الملوك والسلاطين وباقي أشكال الحكم في البلاد الإسلامية على اختلاف الأماكن والأزمنة، ولكن هذا التفسير لم يلاقي القبول التام، حيث يصرح القرطبي

أن الحاكم في زمانه لا تجوز طاعته، فقط يجب الغزو معه لا أكثر (القرطبي،1964، ص 259).

ج–طاعة العلماء: هذا القول أيضا معتبر في تفاسير المسلمين، وربما نشأ في أزمنة الفوضى والحروب حيث يتنازع السلطة أكثر من طائفة وتبقى الرعية بدون قائد، فكان يتصدى لتسيير شؤون المسلمين العلماء ورجال الدين حتى تستقر السلطة في يد المتغلب من المتحاربين، لذلك اطمأن الكثير من المفسرين إلى هذا القول.

د–طاعة أهل الخير: وهم الصلحاء الذين يدعون إلى الاجتماع ويحذرون من الفرقة، ويظهر من هذا الكلام وجود أصحاب الفتن والنزاع في كل زمان ومكان، لذلك أفتى الكثير من العلماء بطاعة أهل الخير إشارة إلى دعاة الصلح والسلم وتعريضا بأهل الفتن والنزاع والاقتتال.

هـ–طاعة أهل الرأي والعقل: وفي هذا القول أيضا تعريض بالسفهاء الذين يطلبون السلطة والكرسي لأجل التسلط على الرقاب والتمتع بملذات الدنيا على حساب المصلحة العامة، فلم يكونوا بذلك أهلا للرأي والعقل في نظر المفسرين، بل كانوا أهل شبهات وشهوات.

و–طاعة القادة: وهو قول معتبر عند الكثير من المفسرين، خاصة في الأزمنة التي تغلب فيها أصحاب السيف على السلطة وصاروا يجلسون على كراسي الملك بحكم التغلب والقوة (ابن أبي حاتم،1998، ص989)، ويبدو أن هذا التفسير ونحوه آني وظرفي وليس بمستمر طول الوقت لأن القوة والقهر ليست في يد أحد طول الوقت بل هي منتقلة من طائفة إلى أخرى ومن شخص لآخر.

2–الدولة في السنة النبوية:

حاول المسلمون من زمن الصحابة إلى اليوم إيجاد الصيغة الملائمة للحكم وتحديد مفهوم طاعة أوْلي الأمر من خلال تتبع ما ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم من أحاديث، لكن دائما يحدث الخلل في إسقاط تلك الأقوال على الواقع.

أ–الحديث الأول: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ بَعْدِي أَثَرَةً وَأُمُورًا تُنْكِرُونَهَا» قَالُوا: فَمَا تَأْمُرُنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «أَدُّوا إِلَيْهِمْ حَقَّهُمْ، وَسَلُوا اللَّهَ حَقَّكُمْ» (البخاري،2001، ص 7052). ولعل هذا الحديث هو تصوير واضح لما يختلج من شعور في صدور المسلمين من غيظ وعدم رضا بالواقع المعيش الذي تمر به الأمة.

ب–الحديث الثاني: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لَا يَزَالُ هَذَا الدِّينُ عَزِيزًا مَنِيعًا إِلَى اثْنَيْ عَشَرَ خَلِيفَةً»، فَقَالَ كَلِمَةً صَمَّنِيهَا النَّاسُ، فَقُلْتُ لِأَبِي: مَا قَالَ؟ قَالَ: «كُلُّهُمْ مِنْ قُرَيْشٍ»

(مسلم،2001، ص 1453)؛ ولعل هذا الحديث لم يجد شرحا توافقيا بين المسلمين إلى اليوم حيث تفسره كل طائفة حسب معتقدها في الخلافة، ولكن الأمر المتيقن عند جميع المسلمين أن أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم لم تكن مبهمة ولا ألغازا ولكنها كانت موضحة وكاشفة لذلك ستظهر معانيه الحقيقية لو بعد حين.

ج–الحديث الثالث: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللهُ فِي ظِلِّهِ , يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ , إِمَامٌ عَادِلٌ...(البيهقي،2003،ص 149)؛ولعل منصب الإمام العادل هو أمنية كل حاكم ورجل سياسة في الدنيا حتى ولو كان مطلبه هذا لغرض دنيوي كاستمرار الحكم أو حسن الذكر بعد الموت.

د–الحديث الرابع: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ الْمُقْسِطِينَ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى مَنَابِرَ مِنْ نُورٍ ، عَلَى يَمِينِ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَعْدِلُونَ فِي حُكْمِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ وَمَا وَلُوا» (النسائي،1986، ص 221)؛ والمتتبع للأحاديث والآثار في باب الحكم والعدل وسياسة الرعية يجدها كلها تدعوا إلى الحكمة والقسط في التعامل على عكس ما نجده تماما في الواقع، بسبب سوء الفهم لا غير.

خاتمة:

إن التقارب الذي تعيشه الشعوب اليوم من خلال وسائل التواصل والاتصال يحتم عليها إعادة النظر في مرتكزات قيام الدولة العصرية، وهذا ما تطرقت إليه الثورة الفرنسية بشكل خاطئ حين قامت بتحييد الدين باعتباره غير ضروري في بناء الدولة الحديثة، ونفس الخطأ ارتكبته الكثير من الدول الإسلامية حين اعتبرت نفسها مسئولة على نشر الإسلام بواسطة جيوشها أو باقي مؤسساتها.

الدين جاء لوقف النزاع وتحكيم العقل وتقبل الآخرين والصبر على أذاهم، فكيف يتحول وسيلة لقتلهم أو إجبارهم على ترك معتقداتهم أو الانصياع لغير ما أمرهم به الله عز وجل من وصايا لم تزل محفوظة من زمن موسى عليه السلام لم تختلف عنها في الانجيل ولا في القرآن الكريم.
يجب إبقاء الدين في حقله الفكري الذي نبت وترعرع فيه وتخليصه من أيادي مستغليه ومستعمليه لأجل أهدافهم المكشوفة لأنه الوسيلة النافعة في تنمية المجتمعات وتواصلها وإذكاء روح التنافس الشريف بين مواطنيها، وكل دعوى باسم دين من الأديان للعدوان هي دعوى باطلة وصاحبها متهم في منهجه وغايته.

المراجع:

1-القرآن الكريم.

2-الانجيل.

3-شرح الكتاب المقدس-العهد الجديد-القمص تادرس يعقوب ملطي، سلسلة "من تفسير وتأملات الآباء الأولين".

4-دائرة المعارف الكتابية المسيحية، قاموس الكتاب المقدس، (تجديف).

5-القس أنطونيوس فكري، دراسة في الأناجيل الأربعة، آلام المسيح والقيامة، غير مطبوع.

6-حلمي يعقوب، (2007)، مدارس النقد والتشكيك والرد عليها، نسخة إلكترونية.

7-شامل عبد العزيز، هل مقولة المسيح تعني العلمانية؟،مجلة الحوار المتمدن، عدد 3384، 2011م، الدين السياسي ونقد الفكر الديني.

8-تادرس يعقوب الملطي،2001، تفسير الكتاب المقدس، مكتبة الكنيسة الأرثوذكسية، مصر.

9-الطبري محمد بن جرير، (2000)، جامع البيان في تأويل القرآن، المحقق أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، ج 8.

10-القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي، الجامع لأحكام القرآن = تفسير القرطبي، تحقيق أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية – القاهرة، الطبعة الثانية، ج5.

11-محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري،2002، صحيح البخاري، المحقق محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، مصر، الطبعة الأولى، ج9.

12-مسلم بن الحجاج ،2001، صحيح مسلم، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة الأولى، ج3.

13-أحمد بن الحسين البيهقي،2003، السنن الكبرى، تحقيق محمد عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ج10.

14-أحمد بن شعيب بن علي الخراساني، النسائي، السنن الصغرى، تحقيق عبد الفتاح أبو غدة، مكتب المطبوعات الإسلامية – حلب، الطبعة الثانية، 1986، ج8.